# منـهج الامام علـي (ع)
## فـي تطبيق العدالـة

أ.م.د عواد كاظم الغزي

م . د .سامي جودة الزيدي

ليس جديدا البحث في شخصية الإمام علي (ع) فقد كتبت أقلاما كثيرة ، حتى نفد مدادها وما نفذ معين علي الإنساني ، فكل يوم يمر واثر الإمام يتجدد عطاء زاخرا بمعانيه ويتحرك مع حركة المجتمع وكأن أحداثه واقعة أنية ، لم يتقادم عليها الزمن ، بل ان إنتاجها لم يستطع ان ينتجه الحكام للبشرية فظل حيا لينا رطبا يلامس الإحساس ويتدفق جريانا يتغذى منه المحرومون أملا ، ويحمله الثائرين شعارا ، أنتج عطاء الإمام مجتمع يحلم بالحرية ، يحلم بالأمن والسلام في التعايش السلمي .

لم يكن الإمام بعيدا عن الواقع فقد كان جزءا من ذلك الواقع يتحسس آلامه ومعاناته ويحمل همه ، لم يحط نفسه بأسيجة التعالي والترفع السلطوي على الناس ، كان واحدا منهم يمر عليه ما يمر عليهم ، يشعر فقر فقيرهم وجوع الجائع فيهم ، لم يغادر المحيط الاجتماعي تعايش معه بروح الأبوة وإحساس المسؤول الذي يخشى على أبناءه عاديات الزمن ، لذا سجل مظهر الإمام وسلوكه وفعله تلك المعاناة والمحرومية كجزء من هم اجتماعي مشترك بين الرئيس ومرؤوسيه ، تجربة لم تتكرر بعد لذا شكلت بحق عنوان للعدالة الاجتماعية ، وتجربة اشترك فيها الواقع والمثال ، صورة حية تتحرك في كل زمان ومكان وتصلح شعارا وتجربة وثورة بوجه الظلمة والمستبدين ، هي مدرسة في السلوك البشري ومنهج لتدريب الحكام على إتقان فن الحكم وإدارة الحكومة الأبوية ، وليس التسلطية الاستبدادية التي يكون الشعب فيها عبدا كله ، والحاكم حرا لوحدة .

لم نأتي بالجديد ، إنما الجديد إننا سوف نتجول معا في مدرسة الإمام علي (ع) نستق منها معاني الإنسانية لنتحسس جوهر الوجود الذي حرمنا منه (آنا) الحكام والظلمة ، الجديد إننا سوف نشعر بإنسانيتنا بوجودنا بأهمية الوجود ، سوف نشاهد مسرحا إنسانيا حيا يدير بطولة أدواره شخصية عجز الكل عن ان يكونوا مثله ، ليس لأنه خلق هكذا ، ولكنه كان مثاليا بحق جرد نفسه من تعاليها واستطاع ان يروضها على طاعته ، فانقادت له ، ولم ينقاد لها ، لذا تبعته صاغرة بعد ان فرض عليها شرطه وأعلنه عليها صراحة فرضت به فكان علي (ع) لا تتصارع فيه الأضداد بين ان يسلك الحق أو الباطل في مواقفه ، ففي كل المواقف مثاليا لان في يده مقود

نفسه ، دربها على إتقان منهج الحق فما كانت ملذات الدنيا تشكل لديه هما ، وهو العالم بنهاية الأمور بعين اليقين لذا كان منهجه الأول في التعامل بين نفسه ومحيطه بقوله : **(والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهدا، أو أجر في الأغلال مصفدا ،أحب إلي من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالما لبعض العباد ،وغاصبا لشيء من الحطام . وكيف أظلم أحدا لنفس يسرع إلى البلى قفولها، ويطول في الثرى حلولها؟)**(١)

عنون الإمام حياته بعناوين الانسانية ، وروض النفس على تقبل العطاء دون الاخذ ، وطلق الملذات من حوله ليتفرغ لمسؤوليته الجسيمة التي ما تركت الإمام (ع) يهنئ براحة الحياة كيف يكون ذلك وهي طليقته : **( يا دنيا يا دنيا إليك عني، أبي تعرضت ،أم إلي تشوقت : لاحان حينك هيهات غري غيري . لا حاجة لي فيك . قد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها .فعيشك قصير، وخطرك يسير ،وأملك حقير، آه من قلة الزاد ،وطول الطريق ،وبعد السفر ،وعظيم المورد )**(٢)هذه كانت تأوهات الإمام (ع) لانه يعلم خطورة المسؤولية وثقل حمله ، مسؤولية تحتاج الى المخلص الذي يطلق الدنيا بما فيها كي يتخطى وعورة الطريق الطويل وقلة الصالحات وعظم المسؤولية ، التي ما قدر عظمها الا الإمام (ع) .

ركز الإمام (ع) على تحقيق العدالة الاجتماعية واعطى لها الاولوية في التنفيذ اذا كان يعلم ان العدالة مفتاح لدخول الحقوق الاخرى فلو انعدمت العدالة في المجتمع لانعدم ما دونها لذا شدد على تحقيقها منطلقا من كون الناس جميعا احرارا يولدون ويموتون ، وليس من حق أي كان ان يسلبهم هذا الحق فقد قال : **(أيها الناس ! إن آدم لم يلد عبدا ولا أمة ،وإن الناس كلهم احرارا)**(٣) وشدد على ان يكون الناس احرارا في عبادتهم ، كما شدد على قضية مهمة هو انجرار الناس الى بعضهم حتى يصل بعضهم الى ان يتنازل عن حريته الى اخر فيكون في موضع العبودية ، فيفقد غاية وجوده ليتحول الى مسلوب الارادة ، وقد يتمثل ذلك في خضوع الناس الى الحكام الظلمة الذين يسلبون الناس حرياتهم ويحولونهم الى عبيد وجواري ، ليصبحوا هم اسياد واحرارا بينما يعاني الناس الذل والهوان ، وكل ما تقادم الزمن كلما رضخ

المجتمع وتسيد الحكام وذلت الرقاب وخنعت النفوس وفقدت معنى وجودها لتتحول الى قطيع يسوقه الجبابرة الى الذبح والتضحية به في ساحات صراعها الذي لا ينتهي لأنه مبنى على الانا المتفردة الرافضة لغيرها ، فنجد الإمام (ع) يحذر من وقوع الانسان في موقع العبودية لغير الله :

**( لاتكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا )**(٤).

الحرية التي نشدها الإمام للناس هي حرية كاملة ليست منقوصة في بعض اجزاءها فالحر من يستطيع ان يرى الحق ويتبعه ، ويرى الباطل ويتجنبه او يصارعه ليحوله الى الحق ، حرية يجد الانسان انه انسانا له موقفا وله معنى وجودي ينبغي له تحقيقه ، وليست الحرية ، ممارسات فوضوية خالية من المعاني والمفاهيم او عبثية محيطها الهو وضياع الغاية ، هي انجاب لمعاني وثبات لمبادئ ، هي تفاعل اجتماعي وتعايش وحدوي هي هم مشترك وايلاد معنوي لحياة كريمة يسودها الحق والعدالة ، والا كانت عبودية صرفة وان كان صاحبها حرا في تصرفاته ، انطلاقا من هذه المعاني كان خطاب الإمام عليه السلام للناس : **( بعد سماعه لأمر الحكمين – : أف لكم ! لقد لقيت منكم برحا يوما أناديكم ، ويوما أناجيكم ؛ فلا بأحرار صدق عند النداء ، ولا إخوان ثقة عند النجاء )**(٥) . وقال في موضع آخر : **( من قام بشرائط العبودية أهل للعتق . من قصر عن أحكام الحرية أعيد إلى الرق )**(٦) فللحرية في منظور الإمام احكامها وللعبودية شروطها ، وينبغي للإنسان اتباع الاحكام والشروط هم نقيضين فالتقصير في احكام الحرية يحول الانسان الى النقيض ، واتقان الشرط في العبودية يحوله الى الحرية ، معادلة اجتماعية يطرحها الإمام ليرسم من خلالها عنوان كبيرا لمتبعي الحق ، والاحرار الذين يرفضون العبودية بأشكالها والوانها الباهتة ، ليختاروا الوان الطيف الابهى الوان الخلاص من قيود النفس اولا وقيود الناس ثانيا .

لقد شكلت العدالة في منظور الإمام هاجسا حيا يتفاعل معه ، ويسعى الى تحقيقه ويشدد على المشتغلين معه في اتباع العدالة وتنشيط مفاصلها ، يوجههم في ذلك ويراقبهم عليه ، يعزلهم اذا قصروا ، ويشيد بهم اذا تتبعوا منهج الحق في ذلك ، لذا لم ينشغل فكر الإمام في شيء بقدر انشغاله في موضوع العدل والانصاف وتطبيق برنامج المساواة ، فالناس في منظوره متساوون في الحقوق والواجبات ، احرارا ولدوا ويموتون وليس من حق احد استعباد احد او سلب كرامته ، فالعدل ميزان تستقام عليه المساواة وتتساوى فيه الناس ، هذا كان منهج الإمام (ع) في التشدد على الحكام والولاة الذين كانوا في دائرة نفوذه والمشتغلين على برنامجه الانساني في تطبيق العدل الاجتماعي ، في عهده إلى مالك الأشتر – : ( **وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل ، وأجمعها لرضى الرعية . . . إن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد، وظهور مودة الرعية** )(٧)

ان اقامة العدل تستوجب وجود ائمة عدل وحكام يطبقون مبادئ العدل ، يبتعدون عن هوى النفس ، والانجرار الى شباكها التي ما ان امسكت بشخص الا القته فريسة لملذاتها ، فيهون امامه كل شيء ، يضيع الحق ويختلط عليه التمييز ، لضياع التركيز ، لأنه غادر دائرة العدال الى دائرة الظلم ، التي يعشو داخلها ، فليس غير لون ورائحة الذات المنتفخة على الاخرين ، لا يميز هناك بين صوت المترفين وانين الجائعين ، لذا كان الإمام (ع) يراقب عماله حارصا على عدم مغادرة احدهم دائرة العدل ليقع فريسة لنفسة الامارة بالسوء ، كان ينبههم الهوى ، ويحذرهم الظلم ، في كتابه إلى الأسود بن قطبة صاحب جند حلوان – : ( **أما بعد ، فإن الوالي إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيرا من العدل ، فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء ؛فإنه ليس في الجور عوض من العدل ،فاجتنب ما تنكر أمثاله** )(٨) .

ولكي تطبق العدالة لابد ان يتساوى الناس في الحقوق ، لكن منظور الإمام لتطبيق العدالة ينطلق من كون المساواة لا تتحدد بالمساواة في المعيشة والرزق فحسب انما يتعداه الى انصاف الناس في كل شيء من قبل الحكام لان الحاكم العادل لابد ان يكون مجتمعه عادلا ، لانها انعكاسا لتصرفاته في امور رعيته ، شدد

الإمام انطلاقا من هذا المفهوم والمعنى على تطبيق المساواة في كل شيء كي يشعر الناس بالعدل ويسود المجتمع مظاهر الحق والعدل والمساواة ، فقد كتب الإمام عهدا الى محمد بن ابي بكرحين قلده مصر هو بمثابة برنامج عمل لتطبيق مبدأ العدالة الانسانية :( **فاخفض لهم جناحك ،وألن لهم جانبك ،وابسط لهم وجهك ،وآس بينهم في اللحظة والنظرة ، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم ، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم...** )(٩) . هذا المفهوم الاجتماعي في العدالة مارسه الإمام قولا وعملا ولم يدخر قوة في تحقيقه فكان مشروعة في المساواة مشروعا انسانيا ، لأنه اعتبر الميل عن السوية جورا وانحرافا عن الحق ، وقد تجسد ذلك بقوله لما عوتب على التسوية في العطاء – :( **أتأمروني أن أطلب النصر بالجور في من وليت عليه ! ... لوكان المال لي لسويت بينهم ،فكيف وإنما المال مال الله** ) (١٠) .

وضع الإمام مبادئ مهمة لسياسة الرعية على الحاكم ان يطبقها ليصل بها الى تطبيق العدل وتحقيق الاستقرار الذي ينشده الجميع ، ولذا نجده يرسم الخطوط الواضحة لعماله في سياسة الناس ، اذ اشار الى ان الحاكم اكثر مسؤولية من غيره ، لذا وجب عليه ان يكون احرصهم ، على ان يستشعر فقرهم وآلمهم ، فيكون ملبسه وطعامه بمستوى افقرهم في رعيته وهذا المعنى نجده في قوله (ع) : ( **ان الله تعالى فرض على ائمة العدل ان يقدروا انفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره** ) (١١) . وكان (ع) يرفض ان يسكن دار الامارة وانما سكن دارا بقربها من الطين ، وكان يرد على من يسأله عن ذلك بقوله : ( **أأبيت مبطانا وحولي اكباد غرثى ، وبطون حرى ، أأقنع من نفسي ان يقال امير المؤمنين ولا اشاركهم مكاره الدهر** ) (١٢) .

لم يقف تطبيق العدالة عند هذا الحد انما تعداه الى امور اخرى قد يغض النظر عنها ، لكن الإمام (ع) كان يعتبرها جوهرية في حفظ الحقوق ، فلم يكن المحسن والمسيء في منزلة واحدة عند الإمام انما حرص على التفريق بينهم وحث ولاته على التمييز بينهم ، حيث يثاب المحسن ويعاقب المسيء لان في ذلك حفاظا للحقوق ، ولكي لا يتمادى في تكرارها فتهدم حقوق الناس ويتجاوز على كرامتها ، لذا تجسد

هذا المعنى في وصايا الإمام الى ولاته : **( لا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فان في ذلك تزهيدا لأهل الاحسان في الاحسان ، وتدريبا لأهل الاساءة على الاساءة ، والزام كل منهم ما الزم نفسه )** (١٣) . واشار الى ولاته بوجوب الانصاف وعدم التعدي على حقوق الناس والتجاوز على حرياتهم واستخدام السلطة استخدام غير عادل والانحراف بها عن مبادئ الشريعة الاسلامية فقد جاء في عهده لعماله :**( انصف الله ، وانصف الناس من نفسك ، ومن خاصة اهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك فانك الا تفعل تظلم )** (١٤) .

هذه الوصية لم تكن مجرد وصية يبعث بها الإمام الى ولاته انما كان يتابعها بنفسه ويحث على تطبيقها ويعزل من لم يتحلى بهذه الصفات اذ انها شروط العامل العادل الذي يسعى الإمام الى ايجاده ووضعه في موضعه ، لذا كان نفسه السباق الى تطبيق هذه المبادئ العادلة ، فلم يكن يفرق في الحق بين من معه ومن عليه ، غايته احقاق الحق وتطبيق العدالة والجميع متساوون في حكومة الإمام ، ليس معيار قياسه انت معي وذاك عليَ ، انما القياس انت مع الحق ، وذاك على الباطل والحق والباطل في منظوره ، ليس القرب منه او الابتعاد عنه ، انما حفظ حقوق الناس وعدم التعدي عليها جاء جعدة بن هبيرة إلى علي فقال :يا أمير المؤمنين ،يأتيك الرجلان إن أنت أحب إلى أحدهما من نفسه – أومن أهله وماله – والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك ،فتقضي لهذا على هذا ؟ قال فلهزه علي وقال : إن هذا شيء لوكان لي فعلت ،ولكن إنما ذا شيء لله (١٥).

نظر الإمام الى الجميع نظرة الأبوة التي لا تفرق بين الاولاد مع انه حريص على تغير سلوك المنحرف منهم ، وارجاعه الى جادة الصواب فان نجح في اعادته دون ضرر فعل وان وجب ان يعاقبه حرصا عليه فعل . لذا كان منهج الإمام الحرص على عدم الظلم وتوخي الحذر في التطبيق ، فلم يسمح الإمام لنفسه بالظلم وان كان ذلك بسيطا لا يستوجب ضررا لكنه يدخل دائرة الظلم ، قد تتسع يوما فلا يدري الظالم ان ذاك ظلما لأنه تطبع عليه وصار جبلة له وسلوكا ، يشعر من خلاله ان الناس تظلمه لذا يدفع ظلمهم له بظلمه لهم .كان الإمام حريصا على حفظ الحقوق

وان تكن بسيطة ليست ذات اهمية تذكر لكنها حقوق واجبة الحفظ والرعاية : **( والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها ، على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته ، وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها، ما لعلي ولنعيم يفنى، ولذة لا تبقى )** (١٦) .

لم يفرق الإمام عليه السلام بين رعيته على اساس الانتماء والعقيدة فقد شكلت المواطنة غايته في سياسة الناس فلم يكن الاختلاف يزعج الإمام ما دامت المواطنة جامعا كليا للامة ، فكل ما عداها يدخل دائرة الجزئية والفرعية المحددة التي لا يمكن لها ان تكون مقياسا لوجودية الانسان على الارض ، فالناس في منظوره متساوون على اساس العطاء والتفاعل الانساني فمقدار ما يقدمه الانسان للامة يكون مقدار لاحترامه وحفظ وجوده على اساس التعايش السلمي وهذا المعنى يجسده في عهده لمالك الاشتر عندما ولاه مصر قائلا : **( وأشعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم ؛ فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق )** (١٧) . ان التوحش صفة لا زمت الحكام في تاريخنا ولعلها كانت ظاهرة مميزة ، فالنادر ان نجد من كان يشعر قلبه رحمة للناس وعطفا عليهم ، لذا اراد الإمام ان يضع منهجا للحكام ان الرعية وان اختلفت انتماءاتهم وعقائدهم فان الجامع الانساني يجعلهم في الامة اخوة ينشأ بينهم التعايش والتفاعل ، فان كان النظام عادلا سادت العدالة وانتشر الحق وتقلص الظلم حتى يختفي ، لذا اكد الإمام على عدالة الحاكم وان لا يكون جائرا سبعا ضاريا يتحين الفرص برعيته لينقض عليهم انقضاض الوحش على فريسته ، حاول من خلال ذلك انسنة المجتمع وتحويله الى مجتمع يسوده الحب والخير والجمال .

حرص الإمام على تطبيق مبدأ العدالة بين الناس من خلال محاربة الظلم واخذ الحق من الظالمين وارجاعه الى اصحابه ، لذا لم يترك مناسبة الا واعلن فيها انه يسعى الى تطبيق مبدا احقاق الحق وان انكره عليه الناس لان الحق طريق موحش وعر يتطلب من سالكيه الصبر والتحمل ، كما يتطلب من الناس اعانة الإمام على تنفيذ العدالة لان تطبيق العدالة هم مشترك فالظلم الاجتماع يلحق الجميع لا يميز

بين انسان وآخر لذا قال (ع) : ( **أيها الناس ! أعينوني على أنفسكم ، وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه ، ولأقودان الظالم بخزامته ، حتى أورده منهل الحق وإن كان كارها** )(١٨)

الظلم شغل شاغل في فكر الإمام اذ ان الخلاص من الظلم يعني تحقيقي مستوى عال من العدالة، والظلم لا يتحقق الا بسلطتي القوة والغنى فهما وحدهما القادران على سلب الحقوق ، لذا حرص الإمام على تسوية هذا الامر ، معلنا ان القوة والضعف تعتمد على الحق ، فالذليل عزيز مادام مسلوب الحق حتى يعاد الحق اليه ، والقوي ضعيفا مادام سالبا للحق حتى يعاد الحق منه ( **الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له ، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه** ) (١٩) .الواضح ان الحق هو الفيصل في الحكم على القوة والضعف ولم يشخصن الإمام الظالم ، انما حدد موقفا يكون فيه الظالم ظالما ، وقد يكون يوما مظلوما ان سلب منه الحق .

لقد عمل الإمام في دائرة مهمة لطالما تركها الحكام هي دائرة الفقراء والمحرومين لذا كان الإمام ينظر اليهم نظرة الحريص على تضييق مساحة الفقر، ورفع مستواهم المعيشي ، لأنه يعلم ان الفقر يمكن ان يسبب تدهورا اخلاقيا وانحطاطا نفسيا ، لذا عمل منذ الساعات الاولى من تسنمه الخلافة على ايقاف تضخم الثروات بسبب التمييز في توزيع الثروة الذي سبب فوارق طبقية بين ابناء المجتمع ، فصارت طبقة تملك المال الذي يكسر بالفؤوس ، وطبقة لا تملك ثوبا تلبسه . لذا كان الإمام من الوهلة الاولى يعلن القسمة بالسوية ، وان الناس متساوون في الثروة لا يمكن لاحد ان يحصل على اكثر من غيره في العطاء مادام الجميع يخضعون لقانون المواطنة ، لذا حرص على اعادة الثروة الى اصحابها ، تلك الثروة التي استولى عليها البعض بسلطة القرابة والمحسوبية وان تفرقت وتقادم عليها الزمن ، فقد اعلن الإمام برنامجه الاول لمحاربة الفساد المالي واعادة الحق الى اصحابه : ( **ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان ، وكل مال أعطاه من مال الله ، فهو مردود في بيت المال ، فإن الحق القديم لا يبطله شيء ، ولو وجدته وقد تزوج به النساء ، وفرق في البلدان ،**

**لرددته إلى حاله ، فإن في العدل سعة ، ومن ضاق عنه الحق فالجور عليه أضيق ) (٢٠) .**

لم يكتف الإمام بهذه المعالجة انما اراد علاجا جذريا للفقر من خلال انصافهم والصرف عليهم من بيت المال ومتابعة اليتامى والارامل منهم ، لانهم اهل بؤس وشقاء لذا توجب على الحكومة توفير معاشهم ومراعاة ظروفهم ، فكان (ع) يعهد لعماله بذلك فقد اوصاهم بذلك قائلا : **( ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم، من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمنى، فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعترّاً. واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكلٌّ قد استرعيت حقه، ولا يشغلنك عنهم بطر، فإنك لا تعذر بتضييع التافه لإحكامك الكثير المهم. فلا تشخص همك عنهم ولا تصعّر خدك لهم، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم، ممّن تقحمه العيون وتحقره الرجال. ففرّغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع إليك أمورهم، ثم أعمل فيهم بالإعذار إلى الله سبحانه يوم تلقاه ، فإن هؤلاء، من بين الرعية، أحوج إلى الإنصاف من غيرهم... وتعهّد أهل اليتم وذوي الرقة في السن، ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه ) (٢١)** . اراد الإمام ان يتجاوز الخطاب الاعلامي الى التطبيق العملي لتغير الواقع بالإمكانيات المتاحة لان الفقير عندما يجد امامه الضمانات الواقعية والقانونية ، سوف يستشعر الوجود لذاته ويطمأن ضميره ، وسوف لن يكون في حاجة الى الهتافات الاعلامية ، وقد لمس واقعا متجسدا بعدالة المساواة في الحقوق ، مما سوف يدفعه مستقبلا الى عدم الرضوخ اذا عاد به الزمن الى التفاوت في العطاء . كما ان الغني سوف يستشعر العدالة فيما بعد لوجود الضمانات التي تدفع عنه الظلم والجور وتحفظ له الحقوق.فقد قال : **( لا يقولن رجال منكم غدا قد غمرتهم الدنيا ، فاتخذوا العقار ، وفجروا الأنهار ، وركبوا الخيول الفارهة ، واتخذوا الوصائف الروقة ، فصار ذلك عليهم عارا وشنارا إن لم يغفر لهم الغفار ، إذا منعوا ماكانوا فيه ، وصيروا إلى حقوقهم التي يعلمون ، يقولون : حرمنا ابن أبي**

**طالب ، وظلمنا حقوقنا ، ونستعين بالله ونستغفره ، وأما من كان له فضل وسابقة منكم ، فإنما أجره فيه على الله ، فمن استجاب لله ولرسوله ودخل في ديننا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا ، فقد استوجب حقوق الاسلام وحدوده )(٢٢) .**

جاء علي ليرد التصور الاسلامي للحكم الى نفوس الحكام ونفوس الناس . جاء ليأكل الشعير تطحنه امرأته بيديها ، ويختم هو على جراب الشعير ويقول : (( لا احب ان يدخل بطني الا ما اعلم )) . وربما باع سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام ، وكره ان ينزل القصر الابيض بالكوفة مؤثرا عليه الخصاص التي يسكنها الفقراء(٢٣). جاء ليعيش كما روى عنه النضر ابن منصور عن عقبة بن علقمة قال : دخلت على علي عليه السلام ، فاذا بين يديه لبن حامض ، آذتني حموضته ؛ وكسر يابسة . فقلت :( يا امير المؤمنين ! أتأكل مثل هذا ؟ فقال لي : يا أبا الجنوب ! كان رسول الله يأكل ايبس من هذا ويلبس اخشن من هذا - واشار الى ثيابه - فأن لم اخذ بما اخذ به خفت الا الحق به )(٢٤) او كما روى عنه هارون بن عنترة عن ابيه قال : دخلت على علي بالخورنق ، وهو فصل شتاء ، وعليه خلق قطيفة ، وهو يرعد فيه ، فقلت يا امير المؤمنين ! ان الله قد جعل لك ولأهلك في هذه المال نصيبا ، وانت تفعل هذا بنفسك ؟ فقال : **( والله ما ارزؤكم شيئا ، وما هي الا قطيفتي التي اخرجتها من المدينة )** (٢٥) .

لقد شكل حفظ الحقوق هاجسا عند الإمام حتى انه لم يكن يأخذ حقه من بيت مال المسلمين ولذا نرى انه يبع سيفه ليلبس ويأكل ، مع ان له الحق فيه كما لغيره لكنه كان يأثر المسلمين على نفسه ، وكان يعتبر خروجه من الكوفة بغير ما دخل اليها خيانة يحاسبه الله عليه فقد قال : **( ياأهل الكوفة إذا أن اخرجت من عندكم بغير رحلي وراحلتي وغلامي فأنا خائن )** (٢٦) وكانت نفقته تأتيه من غلته بالمدينة من ينبع وكان يطعم الناس الخبز واللحم ويأكل من الثريد بالزيت ويكللها بالتمر من العجوة ، وكان ذلك طعامه وكان يقسم مافي بيت المال فلا يأتي الجمعة وفي بيت المال شيء ، ويأمر ببيت المال في كل عشية خميس فينضح بالماء ثم يصلي فيه

ركعتين وأنه كان يقول ويضع يده على بطنه : والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لا تنطوي ثميلتي على قلة من خيانة ، ولاخرجن منها خميصا .(٢٧).

وضع الإمام علي (ع) برنامجا اجتماعيا ضخما لسياسة الامة فكان رائدا للعدالة الاجتماعية ، بما انطوى عليه برنامجه من تحقيق العدالة ، والتي انعكست على الامة فكانت معطياتها ايجابية وتحولاتها انسانية ، ادت بالأمة الى فهم ادوارها ، وتعين مركزها ، وعدم التسامح عند ضياع حقوقها والتهاون في سلب كرامتها . لم يفرق بين رعيته فكان الجميع على خط واحد من الحقوق فقد روي ، إن امرأتين أتتا عليا – عليه السلام – عند القسمة إحداهما من العرب والأخرى من الموالي ، فأعطى كل واحدة خمسة وعشرين درهما وكرا من طعام ، فقالت العربية : يا أمير المؤمنين إني امرأة من العرب وهذه امرأة من العجم؟ ! فقال(ع) والله لا أجد لبني إسماعيل في هذا الفيء فضلا على بني إسحاق(٢٨).

العدل سهل في العبارات والانشاءات اللفظية ، كذلك هو سهل في بعض التطبيقات المحدودة . انما هو صعب ، بالغ الصعوبة ، في التطبيق المتكامل . فقد يعرف الانسان قيمة العدل لصالح نفسه ، لا عليها . وقد يعرفها في الحدود الفردية ، لا في الحلول الاجتماعية . وهكذا ظلت قضية العدل اصعب القضايا على مستوى التطبيق ، على النفس وعلى الآخرين سواسية .

وعدل علي بن ابي طالب النابع من صلب العدل المحمدي ، هو المثال الانساني الخالد في التعبير عن ( كليَة العدل) ووحدة فروعه : في الافكار ، وفي الممارسة ، وفي العلاقة ، على الصعيدين الفردي والجماعي (٢٩).

لم تكن السلطة شغل الإمام الشاغل ، بقدر كونها اداة ينطلق من خلالها الى تدارك وضع الامة وتصحيح شأنها وحل مشكلاتها وتجاوز نكباتها وقد استطاع الإمام التخلص من ضغط السلطة وجبروتها وطغيانها ، اذ صار مركز للامة ومحورا لقضاياها وهمومها ، وكان يرى ضرورة ان يكون الماسك بالسلطة ، يتبنى مشروع العدل واحقاق الحق وان كان على نفسه او اقرب الناس اليه ، فقد سأله ابن اخيه

عبد الله بن جعفر : يا امير المؤمنين لو امرت لي بمعونة او نفقة ، فو الله مالي نفقة الا ان ابيع دابتي ، فأجابه (ع) لا والله ما لك شيئا الا ان تأمر عمك ان يسرق فيعطيك (٣٠) .

مثل العدل في منظور الإمام الجوهر الذي يسعى الوصول اليه ، لان العدل غاية ومقصود ، لذا سعى الإمام الى تشكيل السلطة العادلة ، التي من اولوياته العدل المتكامل ، لذا ركز الإمام على احداث تغير اجتماعي ، ونعني بها تطبيق العدالة بين طبقات المجتمع ، وتحسين مستوى المعيشي ، الذي ينعكس بدوره الى تحقيق الرفاه الاجتماعي ، لم يكن غايته خزن المال والمجتمع يعاني الفقر فقد كان يوزع العطاء على الناس كلما وصلت له اموال ، اذ وزع على الناس في عام واحد ثلاثة اعطية ثم قدم عليه خراج أصفهان فقال :أيها الناس اغدوا فخذوا فو الله ما أنا لكم بخازن ، ثم أمر ببيت المال فكنس ونضح ، فصلى فيه ركعتين ثم قال : يا دنيا غري غيري ، ثم خرج فإذا هو بحبال على باب المسجد فقال : ما هذه الحبال؟ – فقيل : جيئ بها من أرض كسرى ، فقال :اقسموها بين المسلمين(٣١) .

وفوق ذلك كله يقرر الإمام علي بأن هناك حدا ادنى لمستوى المعيشة يلزم توفيره للإنسان ، فلا يجوز الاستيلاء على شيء منه وفاء بدين او خراج مستحق للدولة عند المواطنين ، وهذا الحد الادنى يتمثل في : كسوة الانسان ، صيفا وشتاء ، وأدوات عمله في الارض ، بما فيها الدواب والعبيد ... ثم يعلن تحريم العقوبات البدنية ويمنع استخدامها كوسيلة للكشف عن الاموال التي يعتقد عمال الخراج انها مخبأة ومستورة لدى الناس .. ويقرر منع المصادرات على الاطلاق ، سواء كان المواطن مسلما ام غير مسلم ، اللهم الا اذا تعلق الامر بأدوات القتال يستخدمها البعض في الاعتداء على الاسلام والمسلمين (٣٢) .

كان اهتمام الإمام (ع) بالعدالة جعله يراقب تطبيقها وانصاف المظلومين ، وقد وضع آليات كثيرة لمراقبة سير العدالة وعدم تعرض الناس للظلم ، ناظرا بعين الاعتبار الى ان البعض يخشى ان يصرح بظلمه خوفا من الحكام وجورهم ، لذا وضع الإمام ، لذا اتخذ الإمام (ع) ما يعرف ببيت القصص ، وهو مكان ترمى فيه

قصص اهل الظلامات ، اذ يكتب الناس الرقاع بمن ظلمهم من الولاة ويلقوها في هذا البيت (٣٣) ، ثم يخرجها الإمام ويتم معالجة المشكلات ، ولعل هذا النظام من الانظمة التي لم تصل اليها الدول الا في وقت متأخر ، وتدل على ان العدل كان من ضروريات بناء المجتمع الذي اراد الإمام علي (ع) بناءه والتأكيد على استمراره . كما كان حريصا على حفظ كرامة الناس وصيانتها من المسألة ، لذا كان يقول : **(من كانت له إلي منكم حاجة ،فليرفعها في كتاب ؛لأصون وجوهكم عن المسألة )**(٣٤) .

لم تكن العدالة عند علي (ع) شعارا يطرحه للحصول على مكاسب او مغانم ، كما هو ديدن الكثير من الاحزاب والمنظمات ، او الوصول من خلاله الى السلطة وكسب ود الناس ، مع غياب القصدية في التطبيق ، فالعدل سهلا في العبارات ، والانشاءات اللفظية ، وكذلك هو سهل في بعض التطبيقات المحدودة ، انما هو صعب ، بالغ الصعوبة ، في التطبيق المتكامل ، فقد يعرف الانسان قيمة العدل لصالح نفسه ، لا عليها . وقد يعرفها في الحلول الفردية ، لا في الحلول الاجتماعية . وهكذا ظلت قضية العدل اصعب القضايا ، على مستوى التطبيق : على النفس وعلى الآخرين سواسية (٣٥)لذا اهتم الإمام بالتطبيق وأولاه الاهمية واشرف بنفسه على ذلك ، فقد رآه سعيد بن القيس الهمداني يوما في شدة الحر في فناء حائط ،فقال : يا أمير المؤمنين ! بهذه الساعة ؟ قال :( ما خرجت إلا لأعين مظلوما أو أغيث ملهوفا )(٣٦) .

استطاع الإمام علي (ع) ان يمزج الواقع بالمثال وان يبتعد في تطبيقاته عن حدود المنافع المادية ، فلم تخدعه المنافع المادية والسياسية الزائلة ، استطاع بفطرته السليمة ، وعقله الساعي الى العدل ان يؤسس لمجتمع سليم لا ينخدع بمغريات الحياة وتفاهتها ، لانه كان على علم ان الابتعاد عن العدل ، يعني الوقوع في شرك الاستغلال والتحاسد والتباغض والتمايز والتقاتل ، وخلق الطبقيات والفوارق بين الناس ، وقد لمست الامة مشروع الإمام (ع) وتفاعلت معه وتكونت نواة التغيير وبدأ واضحا ان العدل صار منهج في حياة الناس ، وليس مجرد شعارات يطلقها الحكام

لإفساد مفهومها وتشويه صورتها ، وهذا نجده واضحا عند استشهاد الإمام (ع) كيف اضطربت الناس وماجت احوالها وكيف بدت عليهم مظاهر الخوف من ضياع مشروع العدل الذي اسسه امير المؤمنين (ع) فعندما اعلن خبر وفاة الإمام (ع) جاء رجل باكيا وهو مسرع مسترجع وهو يقول : **( اليوم انقطعت خلافة النبوة ، حتى وقف على باب البيت الذي فيه أمير المؤمنين ( عليه السلام ) فقال : رحمك الله يا أبا الحسن ، كنت أول القوم إسلاما وأخلصهم إيمانا . . . الضعيف الذليل عندك قوي عزيز حتى تأخذ له بحقه ، والقوي العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق ، والقريب والبعيد عندك في ذلك سواء ).**(٣٧) . لقد لخص الرجل سياسة العدل التي لمسها من تطبيقات الإمام العادلة ، والتي هي صلب العدالة ان يجد الضعيف انه قوي وان حقه مصان ، ويشعر القوي وأياً كانت قوته انه ضعيف ويسترد منه حق الآخرين . فلا يتعدى القوي على الضعيف ، ولا يطمع الغني بسلب رغيف الفقير ، ولا ييأس الضعيف من النصرة ، ولا يخشى الفقير سلب رغيفه ، معادلة في خلق مجتمع يسوده الخير والصلاح ويتعايش فيه الناس بمختلف انتماءاتهم واديانهم والوانهم ، لأنه مجتمع السلام والحب والجمال ، الذي تخلقه العدالة .

لم يكن مشروع الإمام (ع) في تطبيق العدالة ، خاضعا لنوازع شخصية ، يريد ان يحقق ذاته من خلاله ، ليسد نقصا اجتماعيا ، او هو طموح التسلط والحصول على المنافع ، التي يحاول الحكام من خلالها رفع شعارات العدالة في الوصول الى غاياتهم ومراميهم ، لقد نظر الإمام الى العدالة على انها ضرورة من ضرورات الحياة وغاية يسعى الحكام الى تحقيقها اذ ان الحاكم الذي ليس له برنامج اصلاحيا ، تكون العدالة من اولوياته ، انما هو حاكم ظالم لا يمكن للامة قبوله . فنجده يلخص لنا الغاية من السلطة في امرين مهمين ، ودونهما تصبح السلطة غاية بذاتها ، لا وسيلة لتحقيق غايات اوجدت السلطة من اجلها ، اذا قال لابن عباس حين دخل عليه وكان الإمام (ع) يخصف نعله :**( ما قيمة هذا النعل ؟ فقال ابن عباس لا قيمة له ، فقال (ع) لهي احب الي من أمرتكم الا ان اقيم حقا او ادفع باطلا ... )** (٣٨) .

يتضح مما سبق ان الإمام علي (ع) طرح مشروع العدالة الاجتماعية في كافة صورها ، واختار الولاة العاملين على تحقيقها ، كما فعل هو في برنامجه ، ولم تكن شعارات ترفعها السلطة ، لتحقيق غايات معينه ، وقد كان الإمام علي (ع) على يقين بأن التغيير يحدث بعد ان يشعر الناس بضمان حقوقهم وان القوة والضعف مرهون بقدرة السلطة على حفظ حقوق مواطنيها بعيدا عن المحسوبية والمحاباة ، او على اساس الانتماء او التمايز الطبقي ، والاختلاف المذهبي او العرقي ، غاية الدولة الوصول بمواطنيها الى التعايش السلمي ، والتسامح والشعور بالمسؤولية ، بعد ان يلمس المواطن العدالة تطبيقا واقعيا ، لا شعارات سلطوية . لذا جسد الإمام (ع) انطلاقا من ايمانه بضرورة ان يكون الانسان كريما عزيزا ، محترم الحقوق ملتزما بالواجبات ، ان يشيع العدالة الاجتماعية منهجا وتطبيقا

**الهوامش...** :

الإمام علي ( ع ) ، نهج البلاغة ، تحق محمد عبده ، ج٢ ، ص٢١٧ .

ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ج٣ ، ص١١٠٨ .

الكليني ، الكافي ، ج٨ ، ص٦٩ .

الإمام علي ( ع ) نهج البلاغة ، ج٣ ، ص٥١ .

المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٦ .

الليثي ، عيون الحكم والمواعظ ، ص٤٥٠ .

الإمام علي ( ع ) ، نهج البلاغة ، ج٣ ،ص٩٣ ؟

ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج١٧ ، ص١٤٥ .

الإمام علي ( ع ) ، نهج البلاغة ، ج٣ ، ص٦٧ .

ابن ابي الحديد ، نهج البلاغة ، ج٢ ، ص٢٠٣ .

نهج البلاغة ، ج٢ ، ص١٨٨ ؛ الكليني ، الكافي ، ج١ ، ص٤١١ .

نهج البلاغة ، ج٣ ، ص٧٢ .

ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج١٧ ، ص٤٤ .

نهج البلاغة ، ج٣ ، ص٨٥ .

ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج٤٢ ، ص٤٨٩ .

نهج البلاغة ، ج٢ ، ص٢١٨ .

المصدر نفسه ، ج٣ ، ص٨٤ ؛ الحراني ، تحف العقول ، ص١٢٦ .

ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج٣ ، ص٣١ .

نهج البلاغة ، ج١ ، ص٨٩ .

القاضي النعمان ، شرح الاخبار ، ج١ ، ص٣٧٣ ؛ ابن ابي الحديد ، ج١ ، ص٢٦٩ .

ابن ابي الحديد ، نهج البلاغة ، ج١٧ ، ص٨٥ .

الطوسي ، الامالي ، ص٧٢٩ .

سيد قطب ، ص١٦١ .

الثقفي ، الغارات ، ج١ ، ص٨٣ .

ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج٣ ، ص٣٩٩ .

الغارات ، ج١ ، ص٦٩ .

المصدر نفسه .

المصدر نفسه ، ص٧٠ .

عزيزالسيدجاسم،عليينابيطالبسلطةالحق،ص٢١٦-٢١٧.

.ابن ابي الحديد ، ج٢ ، ص٢٠٠ .

الغارات ، ج١ ، ص٨٣ .

محمدعمارة،الفكرالاجتماعيلعليينابيطالب،ص٣٨-٣٩ .

العسكري ، الاوائل ، ص١٤٢ ؛ القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج١ ، ص١٣٧ .

المناوي ، فيض القدير ، ج٥ ، ص٤٣٠ .

عزيز السيد جاسم ، ص٢١٦.

المجلسي ، بحار الانوار ، ج٤٠ ، ص١١٣ .

الكليني ، الكافي ، ج١ ، ص٤٥٤-٤٥٥ .

نهج البلاغة ، ج١ ، ص٨٠ .

**المصادر والمراجع :**


- ابن الأثير ، عز الدين ابن الحسن بن أبي كرم (ت٦٣٠هـ) .

١الكامل في التاريخ ، دار صادر (بيروت ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م) .

- الثقفي ، أبو اسحاق محمد الكوفي ( ت٢٨٣هـ) .

٢. الغارات ، تحقق جلال الدين المحدث ( ايران ، د . ت) .

- ابن أبي الحديد ، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد ( ت٦٥٥هـ) .

٣. شرح نهج البلاغة ، تحق محمد أبو الفضل ابراهيم ، البابي الحلبي

(مصر ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م) .

ـ الحراني ، ابن شعبة الحسن بن علي بن الحسين ( تق٤ هـ) .

٤. تحف العقول ، تحق علي اكبر غفاري ، جماعة المدرسين (قم ١٤٠٤هـ) ، ط٢.

ـ الطوسي ، ابو جعفر بن محمد بن الحسن ( ت٤٦٠هـ) .

٥ . الامالي ، دار الثقافة ( قم ، ١٤١٤هـ)

ـ ابن عبد البر ، محمد بن احمد الاندلسي ( ت٤٦٣هـ) .

٦. الاستيعاب ، تحق محمد علي محمد البجاوي ، دار الجيل ( بيروت ١٤١٢هـ) .

ـ ابن عساكر ، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ( ت٥٧١هـ) .

٧. تاريخ مدينة دمشق ، تحق علي شبري ، دار الفكر ( بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م) .

ـ العسكري ، ابو هلال الحسن بن عبد الله ( ت٣٩٥هـ) .

٨ـ الاوائل ، دار البشير ، ( طنطا ، ١٤٠٨) .

ـ الإمام علي (عليه السلام) .

٩ ـ نهج البلاغة ، تحق محمد عبدة ، دار النهضة (قم ، ١٤١٢هـ) .

ـ القاضي النعمان ، ابو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور ( ت٣٦٣هـ) .

١٠. شرح الاخبار في فضائل الائمة الاطهار ، النشر الاسلامي ( قم ، ١٤١٤هـ) ط٢ .

ـ القلقشندي ، ابي العباس احمد .

١١. صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، دار الكتب المصرية ( القاهرة ، ١٣٤٠هـ /١٩٢٢م) .

- الليثي ، علي بن محمد الواسطي (تق٦)

١٢- عيون الحكم والمواعظ ، تحقبق السيخ حسين الحسيني ، دار الحديث (د . ت) .

- الكليني ، ابو جعفر محمد بن يعقوب (ت٣٢٩هـ) .

١٣. الكافي ، تحق علي أكبر غفاري ، دار الكتب الاسلامية ( طهران ، ١٣٦٣هـ ) ط٥

- المجلسي ، محمد باقر (١١١١هـ ) .

١٤. بحار الانوار الجامعة لدرر اخبار الائمة الاطهار ، تحق ، السيد إبراهيم الميناجي

ومحمد الباقر البهبوي ، مؤسسة الوفاء ( بيروت ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ) .

- المناوي ، محمد عبد الرؤوف ( ت١٠٣١هـ) .

١٥- فيض القدير شرح الجامع الصغير ، تحق احمد عبد السلام ، دار الكتب العلمية